قصص الطلائع

براءة مارية القبطية

«قصة طويلة»

فؤاد حجازى

أدب الجماهير

كتاب أدبي يشرف عليه :

فؤاد حجازى

المراسلات :

عمارة الفردوس. شارع أبو جلبة.
جوار مدرسة الشيخ حسنين. المنصورة

تليفون :

٣٤٧١٦٨
٠٥٠

غلاف : نجوى شلبى

رسوم داخلية : غادة صلاح (من الطلائع)

– الركب على وشك الرحيل.

همس بها خادم، ووقف تأدبا، خارج الحجرة.

أفلتت مارية، نفسها، من حضن زوجة المقوقس، ولم تستطع أن تمنع انحدار دموعها على خدها.

وقفت بنت المقوقس، والوصيفات، لاتملكن أنفسهن، وقد ندت عيونهن بالدمع، واحتبست أصواتهن.

قبلت زوجة المقوقس مارية، على وجنتيها، ونطقت بصعوبة:

– هيا يامارية.

واحتضنت الزوجة، وكذلك فعلت بنتها والوصيفات، سيرين شقيقة مارية، والجارية قيسر.

تمالكت الزوجة نفسها، ونادت:

– بريرة.

دخلت جارية سوداء، قد لفها الحزن. اقتربت الزوجة منها، وربتت على كتفيها، وقالت موجهة الحديث لها ولسيرين وقيسر:

– لاأوصيكن بمارية.

قالت سيرين:

– هل توصينني بشقيقتي..؟!

وردت قيسر وبريرة في نفس واحد:

– مارية في ..

وأشارت كل منهما إلى عينيها.

قالت الزوجة:

– ولاتجعلن أحدا يوقع بينكن.

هززن رؤوسهن، ولم يجدن مايقلنه. أنقذهن من اضطرابهن، دخول الخدم لحمل حاجاتهن.

وظهر المقوقس على عتبة الباب.

قال المقوقس جيريج بن ميناء:

– تعلمين منزلتك عندنا يامارية، وأنت ياسيرين.
قبلهما فى جبينيهما، وقال:
– لولا قدْر الرجل، الذى أوفدكما إليه، مافرطت فى إحداكما أبدا.
استطرد المقوقس، وقد تهدج صوته، متأثرا بما لمح من تردد الدمع فى عيونهما:
– أعلم ماأنتما مقبلتان عليه، فى مجتمع غريب عليكما، ولكن عزائى أن أسمع أنى أحسنت الاختيار. ولاتنسيا – لحظة – أن العيون ستكون مفتوحة عليكما. المصرية فعلت، المصرية ذهبت، المصرية قالت، فتصرفا بما يليق بمصرية.
التفت المقوقس نحو قيسر وبريرة، وقال:
– الكلام موجه لكما أيضا.
صفق بيديه، وأمر بإحضار مأبور.
قال مأبور:
– أمر مولاى المقوقس.
قال المقوقس:
– لقد اخترتك أنت بالذات، لتذهب معهن، لما أعرفه عنك، من حسن خلقك ولين طباعك، كما لم يغب عنى أنك من قرية مارية، وبمثابة ابن عم لها. فكن عونا لها وحارسا.
قال مأبور:
– اطمئن يامولاى.
نظر المقوقس إلى سيرين وقيسر وبريرة، وقال:
– لتكن يدك معهن جميعا.
قال مأبور:
– ليهدأ بال مولاى. وان كان يَعِّز على ترك القصر.
تنهد المقوقس وقال:
– للضرورة أحكام.
وخرج، وهن فى أثره.

وبينما تغادر مارية، خيل اليها انها سمعت تنهدات، وبكاءً مكتوما. خشيت أن تلتفت نحو الزوجة والوصيفات، فتخونها شجاعتها. شدت قامتها، وسارت وهى تتمتم فى نفسها: هل كان لابد من الفراق.. حتى أعلم مدى مَعَزتى عندهم..؟!

- ٢ -

أحست مارية بانقباض، حين أوشك الركب على مغادرة صحراء سيناء. لحظت سيرين حالة شقيقتها، ولم تكن أقل منها حزنا. ومع ذلك حاولت أن تسرى عنها بالحديث، لتصرف بالها عما تفكر فيه، ولكنها أمسكت، وقد انحدرت دمعتان من عينيها. حولت وجهها ناحية قيسر وبريرة، فوجدت الوجوم يعلو وجهيهما.

اقترب حاطب براحلته منهن، وقال:

– علام الوجوم.. وأنتن لاتدرين شيئا عما ينتظركن..؟!

كادت مارية تنفجر فيه. ولكن حين طالعتها سحنته الهادئة انطفأ غضبها. تأملته، وقد أطبق بيديه على مقود بغلته، وأرخاه، وبانت أصابعه غليظة قصيرة.

انحنى قليلا إلى الأمام. ولم تكن قد لحظت من قبل انحناءة فى كاهله على صدره، أو استرعى انتباهها خفة لحيته. ودت لو يتفهم شعور من تغادر بلدها وهى تعلم أنها لن تعود إليه ثانية، انفرجت شفتاها، لكن الكلمات وقفت فى حلقها.

قال حاطب:

– لاتقلقى.. سوف تلقين نبيا كريما.

تذكرت مارية الأحاديث التى كانت تدور، بين المقوقس وزواره، من أهل الجزيرة العربية.

فى إحداها، سأل المقوقس المغيرة بن شعبة عن النبى محمد، فقال له: يدعو إلى عبادة الله وحده، ويدعو إلى الصلاة والزكاة، ويحرم الزنا والخمر.

قالت مارية فى نفسها: رجل يدعو إلى تحريم الزنا والخمر، فهو رجل يمكن الاطمئنان إلى العيش معه. ولاتكاد مارية، تركن إلى هذا الرأى، حتى تعاودها الهواجس مرة أخرى. فهى لاتعرف شينا عن البلد، الذى هى فى الطريق إليه، سوى ماسمعته عن بلاد العرب، أنها بلاد فقيرة، بائسة. وتساءلت.. أيكون هذا البلد، قد طبع النبى محمد بالخشونة، وجفاف الطبع.

تذكرت حديث حاطب بن أبى بلتعة، مرافقها فى الرحلة، وهو يصف للمقوقس النبى محمد: فى عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم، ويركب الحمار، ويلبس الشملة.

ارتاحت نفسها قليلا، ولكن خشيتها، مما هى مقبلة عليه، جعلت الهواجس تتلاعب بها ثانية.

تملت فى وجوه زميلاتها، فوجدتهن صامتات، فأيقنت أنهن غارقات فى التفكير.

كادت تستسلم للوجوم، لولا ماجال بخاطرها، من حديث المقوقس عن النبى محمد: عُرف عنه أنه لايأمر بمزهود فيه، ولاينهى عن مرغوب عنه.

انبسطت أسارير مارية، وإذ لحظ حاطب بشاشة وجهها، ابتسم، كأنما أدرك ماجال بخاطرها.

أشار حاطب بوقوف الركب للراحة، جوار عين ماء. وأمر بسقيا البغال، وإعداد خيمة يستظلون بها، ويصيبون شينا من الطعام.

انتبه حاطب إلى صمتهن، وزهدهن فى تناول الطعام، فقال محاولا التخفيف عنهن:

— لاتقلقن.. سوف تنعمن بالحياة، فى ظل الدين الجديد، فقد سوى بين الناس، وأنصف الفقراء.

تطلعت عيونهن إليه، كأنما تحثه على المزيد، فقال حاطب:

— آذت قريش النبى كثيرا.. لكنه لم يتخل عن سخريته من تلك التماثيل التى يقدسونها.

سحبت مارية ناظريها، وكأنها تغوص بهما إلى داخل نفسها، وطاف

بمخيلتها، ماسمعته عن مارجرجس. قيدوه بالسلاسل. ووضعوا حجرا كبيرا على صدره، وضربوه بالسياط، ولم يكف عن السخرية من تلك التماثيل، التى قدسها الرومان. ودقوا مسامير محماة فى النار فى قدميه، وخلعوا أظافره، وتساءلت مارية: مالذى جعله يتمسك برأيه، وكان فى امكانه أن يصبح أميرا أو يخلف أباه فى حكم مقاطعة اللِد بفلسطين، أو أن يصبح فارسا فى الجيش الرومانى. مالذى جعله يتحمل العذاب، وكان يستطيع أن يتزوج عروسا جميلة، ويتمتع بثروة أمه الفلسطينية.

لحظ حاطب سهوم مارية، فظنها ومن معها، لايتفهمن كلماته، فأمسك لسانه، ولكنه فوجىء بمارية تعود من شرودها، وتقول:

— نحن نفهمك تماما.

ونظرت فى عيون سيرين وقيسر وبربيرة، فهزوا رؤوسهن، مؤمنين على كلامها. فأدركت أن مادار برأسها، دار مثله برؤوسهن.

ارتاحت نفس حاطب، وان كان فى عجب من أمرهن، لكنه تحلى بصبر جميل، وأمر بشد الرحال.

استوت مارية فوق بغلتها. وسار مأبور أمامها. أعطى الركب ظهره لصحراء سيناء.

لم تستطع مارية أن تسيطر على نفسها فسحت عيناها بالدمع، وخشيت أن تنظر فى وجوه زميلاتها.

حاولت أن تشد من أزر نفسها. استعادت كلمات المقوقس لها: لولا مكانتك عندنا، ولولا تقديرنا للشخصية التى نرسلك لها، مااخترتك أنت، فاسلكى يابنيتى كمصرية.

مسحت بناظريها رمال الصحراء الناعمة، قد خفف من شدة اصفرارها وهن أشعة شمس العصارى، فسرى عن نفسها قليلا، وطنت الكلمات فى أذنيها: اسلكى يابنيتى كمصرية.

والشمس تعد عدتها للمغيب، تطلعت مارية نحو الأفق، وقد غابت عما حولها. طردت الهواجس من رأسها، وأخذت تردد فى نفسها: نعم.. أنا مصرية.. نعم أنا مصرية.

طلب حاطب من جيد، رفيقه فى الرحلة، أن يرعى الركب، ريثما يبحث عن قافلة، متجهة إلى المدينة. وطلب منه، أثناء غيابه، أن يريح البغال والحمير، وأن يقضوا حاجاتهم فمن له حاجة فى طعام فليصبه، ومن أراد أن يغتسل فليفعل.

عند الأصيل، عاد حاطب، وقد طفح وجهه بالبشر. أخبرهم أنه عثر على قافلة، قادمة من الشام، محملة بتجارة على ظهور الجمال، فى طريقهم إلى المدينة، وأنهم وافقوا أن ينضم بركبه إليهم.

شكر حاطب الحرس، الذى أرسله المقوقس، لحمايتهم طوال الطريق، وأخبرهم أنهم سيكونون فى أمان، فى حمى القافلة، وطلب منهم العودة فى الصباح، وحملهم تحياته وشكره، للمقوقس ورجال حاشيته.

فى البكور، بزغت الشمس، من ناحية الجزيرة العربية، بألوانها البرتقالية، المشربة بحمرة خفيفة..وغسلت شعاعاتها الهادئة وجوههم.

تعاون جيد مع مأبور فى حزم المتاع، وإعداد الحيوانات للمسير.

لف الركب حول قمة خليج العقبة، وبعد قليل، انضموا إلى القافلة، وقد اشتدت حرارة الشمس، غاب البحر عن أبصارهم، وأحاطت بهم بحار من الرمال، فى جنباتها تلال من الرمال أشد صفرة. وكلما اشتدت حرارة الشمس، أحسوا بشواظها، تخترق ملابسهم، وتنال من أجسادهم.

حين اقترب حاطب، من مارية وصاحباتها، ليخفف عنهن، مشقة الطريق، بالحديث، بانت سحنته أقل سمرة، وعندما ابتسم، اختفى، أوكاد، مانفر فى أديم عينيه السوداوين من عروق حمراء دقيقة. قال حاطب:

— بلادنا شاسعة كما ترون.. وفى كل مكان صالح للمعيشة، توجد قبيلة تمسك بأسباب الحياة. ولكن العزلة، وقلة الخير، جعلتا القبائل تتناحر من أجل العيش، وبسط النفوذ، وجاء النبى محمد ليجمع قبائل العرب على كلمة واحدة.

سألت مارية:

— وهل نجح فى ذلك..؟

قال حاطب:

ـ نجح إلى حد كبير . . وهو على أية حال ماض فى خطته.

سألت ميرين:

ـ وهل ثمة مايعوقه . . ؟

تفكر حاطب برهة، وقال:

ـ العرب لم تتفهم بعد الدين الجديد.

قال جيد، وكان قد اقترب منهم:

ـ أغنياء القبائل يحاربونه، أغلب الظن، لأن الدين الجديد يسوى بين السادة والعبيد . . بل ويدعو لعتق العبيد.

قال حاطب:

ـ أضف إلى ذلك، أن الفرس فى جانب من الجزيرة العربية، يستميلون بعض القبائل، ومن جانب آخر الرومان يستميلون آخرين.

أسلم حاطب، وقد انهمك فى الحديث، مقود بغلته، لمأبور، الذى يقود بغلة مارية.

تبسم جيد وقال:

ـ صدقت ياحاطب.

استمر حاطب:

ـ ولعمرى . . لو نجح محمد، لأصبح العرب قوة فى وجه الفرس والرومان.

ابتسمت مارية، وكادت تفلت منها ضحكة، فقطب حاطب وقال:

ـ لايعجبك الكلام.

زادت إبتسامة مارية، وأشارت إلى البغلتين.

كان مأبور، قد أخذه الحديث، وغفل قليلا عن البغلتين، فاقتربت كل منهما من الأخرى، كأنها تأتنس بها.

ضحك حاطب، فظهرت أسنانه قوية، رغم شيخوخته، وإن علتها سمرة خفيفه، وقال حاطب:

ـ صدقت بغلتنا . .

نظرت إليه مارية، بامتنان، وقالت، وقد لمعت عيناها:

— لم تفتنى كلمة من حديثك، فلو صح ماتقول، لخفت قبضة الرومان عن فلسطين، ولأحست مصر بالإطمئنان.

أطرق حاطب مفكراً، وبان أن جيد يتفكر فى كلمات مارية.

قالت سيرين:

— فى مصر أصيب الناس بالإحباط بعد ماحدث مؤخراً.

أوضحت مارية:

— هرقل إمبراطور الروم، إنتصر منذ قليل على الفرس، وهو يتلكأ الآن فى الشام.

قال حاطب:

— أعلم، وقد أرسل له النبى محمد يدعوه إلى الإسلام.

سألت سيرين:

— وهل استجاب.

قال حاطب:

— رد الرسول برفق، محملا بالهدايا، ولم يستجب.

قالت مارية:

— كنا فى مصر، نود لو ينهزم هرقل، أو على الأقل، لاينتصر هذا الإنتصار الحاسم، الذى قوى قبضة الروم على الشام، وخاصة فلسطين، وأضعف آمالنا فى مقاومة جندهم، فى مصر، فكلما ثار المصريون، جاءت النجدة من الرومان عبر فلسطين.

أدرك حاطب مايجول بخاطر مارية، وعلم الآن سر إلتماعة عينيها، فبزوغ العرب كقوة، يضعف الرومان، ويتيح لمصر فرصة للتخلص منهم.

قال حاطب:

— أفهم ماترمين إليه.

تنهدت مارية وقالت:

— ليت هذا اليوم لايكون بعيداً.

قال جيد، وقد بدأ يدرك الأمر:

— لهذه الدرجة.

قالت سيرين:

- أنت لاتعرف أى ضرائب باهظة يفرضها الرومان على المصريين.

أتاهم صوت مأبور، كأنما من جب سحيق:

- ولاتعرفون، كم قتلوا من أقباط مصر، بسبب تمسكهم بدينهم.

نطق مأبور عبارته، وتأملهم بعينيه الضيقتين، ولما لم يعلق أحد استشعر حرجاً، وظن ألا حق له فى المشاركة فى جديثهم. ولكن حين جاءته كلمات حاطب متفهمة لكلماته، زايله حرجه، وأسرع الخطو، وشد جلبابه حول وسطه، صانعاً عبأ خفاقاً، سرعان ماامتلأ بالهواء. فرطب جسده. وأمسك بمقود البغلتين.

- ٤ -

أوقفت مارية بغلتها، وقد أخذ بمجامع نفسها المنظر. جبال عالية، غمرتها أشعة الشمس، فبانت النتوءات الجانبية بنية داكنة، أما السطوح الظاهرة، فمال لونها البنى إلى إحمرار، ذكرها بلون طمى النيل وقت الفيضان.

تنهدت مارية، وقد أسرتها الخضرة على جانب من جبل آخر، واستشعرت وجود ماء عذب.

لاحظ حاطب مااستولى على نفس مارية، فاقترب منها وقال:

- عما قريب، نصل إلى يثرب، ونصيب شيئاً من الراحة.

أحست مارية، ومن معها، بالإرتياح. أخيراً سوف يستظلون بأشجار، لم يروا مثلها، منذ غادروا وادى النيل.

أومأت مارية لمأبور، فقاد بغلتها، ولم يمض وقت قليل، حتى بدا الجبل عامودياً أمامها، لاتستطيع أن تبلغ قمته بناظريها. وطافت بمخيلتها، الجبال التى فى الطريق إلى قريتها صفن، بصعيد مصر، وقالت فى نفسها: لا.. الأخرى لونها جيرى وأصفر، وسطوحها هشه، تحدب على القرى ومجرى الماء، أما هذه فشماء، داكنة، صخرية، وعرة، يصعب إرتقاؤها، وعِظَم أحجامها، ودكنتها، يزيدان من رهبة المكان. أما صمتها فيلقى الهيبة فى النفس.

توقفت بغلة مارية عن المسير غير ملقية بالا لمحاولات مأبور معها، وكأنها أحست أن صاحبتها تقلب أوجه الفكر، فآثرت أن تمتنع عن الحركة، لتتيح لها فرصة للتأمل، ولكز حاطب بغلته فعصته، ضحك وقال لمارية:

ـ إئذنى لبغلتك بالمسير.

نظرت إليه مارية فى عجب، فأسرع حاطب يقول:

ـ حتى تسير صاحبتها.

وأشار إلى بغلته.

ضحكت مارية وقالت:

ـ لعلها تعبت من المسير.

تبسم حاطب، وقد فهم ماترمى إليه، وقال:

ـ نحن الآن فى منتصف الطريق إلى المدينة.

ماأن سمعت مارية، كلمة المدينة، حتى دق قلبها بسرعة، واحتارت فى تعليل ذلك.

لكزت مارية بغلتها بقدميها، ومأبور يسايسها، فتحركت ببطء، وتجاوبت معها بغلة حاطب. وبعد قليل توقفت، فالتفتت إليه مارية وقالت:

ـ لافائدة.. أتعبها طول الطريق.

سمع حديثهما جيد، فاقترب من بغلة حاطب. تفحص رأسها، وفتح فمها، وحين طالعه لسانها المتشقق، قال:

ـ عطشى.

قال حاطب:

ـ عما قليل تحط القافلة رحالها، ونتمكن من السقيا.

قال جيد:

ـ إذن.. إنزل عن البغلة.

رفع حاطب رأسه نحو يثرب. أدرك جيد مايجول بخاطره فرغم ماقد يلوح، أن يثرب فى متناول أقدامهم، إلا أن قطع ماتبقى من الطريق، وصعود الجبل إليها، قد يستغرق حتى المغيب، والوقت لم يزل عصراً. قال جيد:

ـ لم لاتستخدم هذه البغلة.
وأشار نحو هدية المقوقس.
قال حاطب:
ـ لا.. هذه مهداة إلى رسول الله، ولن أتعبها، أو أستخدمها، حتى تصل إلى صاحبها.
رد جيد:
ـ إذن عليك بالمسير.
قال حاطب فى نفسه.. مرحباً بالمسير، لأننا إذا أبحنا لأنفسنا استخدام البغلة، فلن يمضى وقت قصير، حتى نبيح لأنفسنا تذوق عسل بنها، وارتداء القباطى، والتزوج من الجوارى.
نزل حاطب عن بغلته، وتخفف من مقودها، وأسلمه إلى مأبور.
مرت قيسر وبريرة به. عرضتا عليه أن يركب مكانهما، فقد خجلتا أن ترياه سائراً وهما راكبتان. لكنه أشار لهما بيده أن تستمرا فى طريقهما ولا تعبآن به.
وحين مر به الطبيب فوق بغلته، عرض عليه أن يحل محله، ويمشى هو قليلا، فأبى.
تقدم الركب حاطب، فتمتم لنفسه: لعلها فرصة أن يلين الشيخ عظام قدميه.

ـ ٥ ـ

شارفت القافلة مدخل المدينة، فاشتد وجيب قلب مارية.
شكر حاطب القائم على أمر القافلة، واستأذن فى الذهاب.. قصد بركبه إلى مسجد النبى محمد فى المدينة.
تركهم حاطب ليسلم النبى رسالة المقوقس، رداً على رسالته التى يدعوه فيها إلى الإسلام، والتى يعتذر فيها عن قبول دعوته، ويبلغه بالهدايا التى بعثها إليه المقوقس.
تشبثت مارية بيد سيرين، وقالت:

— لاتتركينى مهما كان الأمر.

ردت سيرين جزعة:

— وهل الأمر بيدى..؟!

وسرعان ماحضر إلى مجلس النبى، بعض من أهل المدينة، بينهم حسان بن ثابت، وأبو جهل بن حذيفة العدوى. جاءوا يتسقطون أنباء الروم فى الشام، ويسألون عن سفارة النبى فى مصر.

جاء رباح إلى مارية ومن معها، وقال:

— أوفدنى النبى للإشراف على راحتكم.. فمن له حاجة قضيناها له.

وبعد أن اطمئن رباح على قضاء حاجتهم، استأذنهم فى المغيب بعض الوقت. وحين طالعته عيونهم المتسائلة، قال:

— ذاهب إلى الحارثة بن النعمان لسؤاله فى منزل من منازله المجاورة، لتقيموا فيه.

أحست مارية ومن معها بالإرتياح، ونشعت عيونهم بالإمتنان، وقد علمنا بأمر زوجات النبى، فلو أقمنا معهن، فسوف يشعرن بالحرج ولن يتمكن من التبسط والراحة.

أطل حاطب وأومأ للطبيب أن يحضر، ولم يمض وقت قليل، حتى خرج الطبيب ووجهه يطفح بالبشر. استفسرته مارية، فقال:

— أخبرنى النبى: نحن قوم لانأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لانشبع.

نظروا إليه غير متفهمين، فقال الطبيب:

— إذا كانت المعدة بيت الداء، فهم لايرهقونها بطعام زائد.

فتساءلت مارية: فما حاجتهم إلى طبيب إذن..؟!

والتفتت مارية إلى الطبيب وقالت:

— إذن ستعود إلى.. فعاجلها الطبيب: مصر.

وقعت كلمة، مصر، من قلوبهم، موقعاً أخضر ندياً. قالوا فى نفس واحد، والدمع يكاد يطفر من عيونهم:

— السلام أمانة..

وسرعان ماخرج من مجلس النبى، حسان بن ثابت وأبو جهم بن

حذيفة العدوى وأقبلا على الطبيب. قال حسان: غادت مسرعاً.. وددنا لو اتصل بيننا الحديث.

قال الطبيب: رهن اشارتك.

قال حسان:

— عفواً.. أردت أن استفسر عن حال القبط فى مصر.

قال الطبيب: كثرة الضرائب تجعلهم يعانون من الضيق فى العيش.

— قال أبو جهم: وماذا عن رجال الدين..؟

رد الطبيب:

— رجال الكنيسة يساندون الناس.. خاصة الفقراء.

وأكملت سيرين:

— البطريرك بنيامين يعارض بشدة عسكر الروم.. وهو الآن هارب فى الصحراء خوفاً من بطشهم. التفت حسان إليها، ولم تكن قد استرعت انتباهه من قبل، ولمح وجهه النحيف ولحيته البيضاء، مرسومين فى عينيها العسليتين.

وحين لحظت سيرين أنه يتأملها، احمر خداها، ودارت نفسها خلف مارية.

لحظه أبو جهم، فقال:

— .. هل سننتظر طويلا حتى تقرض الشعر فى محاسنها..

همهم حسان، وسار بجواره، وصورتها لم تغادر مخيلته. بشرتها البيضاء الناعمة، وشعرها الأسود المسترسل، خلافاً لشعر مارية الأكرت، الذى جمعته فى ضفيرة واحدة، أطلقتها خلف ظهرها الرخص، وهى تقف باعتدال، بقامتها الرشيقة، حاجبة سيرين عنه، ولاتهرب من ناظريه، وتواجهه بعينيها الواسعتين السوداوين.

جاء رباح، وطلب منهم جمع حاجاتهم، ليذهب بهم إلى مقرهم الجديد.

أهدى النبي محمد، قيسر لأبى جهم العدوى. امتعضت قيسر، فقد سمعت أنه ضَرَّاب للنساء.

عزَّ على مارية ذهاب قيسر، وقالت، وهى لاتدرى، هل تخفف بقولها عن قيسر، أم عن نفسها:

ـ لاتُضرب من كانت فى مثل جمالك.

ابتسمت قيسر، مغالبة حزنها، وقالت:

ـ لن أعتاد، بسهولة، فراقكما.

قالت سيرين:

ـ لسنا فى بلدة أخرى، وتستطيعين الاستئذان، وزيارتنا فى أى وقت

* * *

وحين زارت قيسر مارية، بعد فترة قصيرة، كانت مارية فى لهفة، للإطمئنان على حالها.

قالت قيسر:

ـ أبو جهم رجل كريم.. أهدى النبى كساءً من الصوف.

قالت سيرين:

ـ كيف تعيشين معه..؟

قالت قيسر:

ـ يشغل وقتى دوماً.. فهو علَّامة بالنسب، وكدت أحفظ أنساب العرب.

قالت مارية:

ـ وكيف حاله معك؟

قالت قيسر:

ـ النبى محمد يثق به، يكفى أنه جعله «مصدقاً»، يحصل حقوق المسلمين من الإبل والغنم.

ضحكت مارية، وقالت:

ـ ياماكرة.. لست اسأل عن هذا.

ردت قيسر:

ــ ألا تغفلين أبداً.. لم يمسسني بسوء.

قالت مارية:

ــ ألم أقل لك.. من كانت فى مثل جمالك، لاتُضرب.

نطقت مارية كلماتها، ووجمت، لحظت قيسر علامات الأسى على وجهها، فسألت:

ــ ما الخبر..؟

تنهدت مارية وقالت:

ــ ستغادرنى سيرين اليوم.

قالت قيسر:

ــ إلى أين..؟

قالت مارية بأسى:

ــ أهداها النبى إلى شاعره حسان بن ثابت.

قالت قيسر:

ــ وهل تحزنين لهذا. هل ظننت أنها ستمكث جوارك طوال عمرها..

قالت مارية:

ــ صدقت، ولكن نفسى لاتطاوعنى على فراقها.

قالت قيسر:

ــ لن تكون بعيدة، وسوف تجدينها إلى جوارك كلما دعت الحاجة.

قالت مارية:

ــ أرجو هذا..

حاولت قيسر، أن تغير مجرى الحديث، لتصرف مارية عما يكدرها، ولكنها وجدت نفسها تعود إلى نفس الحديث ثانية، حين سألت:

ــ ولماذا حسان بن ثابت؟

قالت مارية:

ــ هجا حسان صفوان بن المعطل، فانتظره ذات ليلة، وضربه بالسيف، فكشط له جلد رأسه

قاطعتها قيسر:

— سمعت أبا جهم يردد هذا البيت لحسان ويضحك:

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن الفُريعة أمس بيضة البلد.

وحين استفسرته، أخبرنى أبو جهم أن الفريعة هى أم حسان، وأنه يقصد ببيضة البلد، أنه وحيد، مميز، كبيضة النعامة، قاصداً التعريض بصفوان وأهله.

قالت سيرين:

— إذن فقد أخطأ حسان.

ردت قيسر:

— صفوان أضاع حقه حين ضرب حسان.

ثم التفتت إلى مارية وقالت:

— أكملى...

قالت مارية:

— كلم النبى حسان ليرفق بصفوان، حتى صفح عنه، فأهداه النبى سيرين، تقديراً لعفوه.

التفتت قيسر إلى سيرين وقالت:

— نعم الرجل

دق قلب سيرين بعنف، وتذكرت حين رأت حسان أول مرة، عند خروجه من مجلس النبى، يوم وصولهم إلى المدينة، وقد انسدلت ناصية من شعره بين عينيه.

قالت قيسر، وقد لحظت اضطراب سيرين:

— اطمئنى.. حسان يكن للنبى وآل بيته كل مودة، وسيكون رفيقاً بمن يأتيه من طرفه.

رفعت سيرين ناظريها إليها، ولم تنبس، فقالت قيسر:

— كثيراً ماسمعت حسان يردد:

فإن أبى ووالده وعرضى * لعرض محمد منكم وقاء.

قالت مارية:

— وكثيراً، ماسمعت، أن النبى يستعين به على خصومه، فكان يقول له:

«أهج قريشاً.. فإنه أشد عليهم من رشق النبل»

دخلت بريرة، وأنبأت، أن غلاماً، من طرف حسان بن ثابت. جاء في طلب سيرين. نهضت سيرين، وقد اغرورقت عيناها بالدموع. احتضنت قيسر وبريرة سيرين، وربتتا على ظهرها.

قبلت مارية شقيقتها فى مفرق شعرها، أعلى جبينها، واحتضنتها.

جمعت سيرين أغراضها، بمساعدة بريرة، وتهيأت للذهاب. فقالت مارية:

ــ طمئنينى بسرعة.. ولاتنقطعى عن زيارتى.

أومأت سيرين برأسها، وقد احتبس صوتها من التأثر، وهى تغادر.

قالت قيسر مخففة عن مارية:

ــ هذه سنة الحياة..

لم ترد مارية. فاستمرت قيسر:

ــ أليست هذه كلماتك..؟!

دمعت عينا مارية، وجلست وهى تقول:

ــ صدقتِ، ولكن للعاطفة أحوالها.

-٧-

خطت سيرين بقدميها، داخل حجرة مارية. طالعتها رائحة العود الزكية. وحين تهيأت للجلوس، انتظرت قليلا، كأنها تستوثق بشئ وقالت:

ــ ومسك أيضاً..!

أطرقت مارية، حياءً، فقالت سيرين:

ــ جئت فى وقت غير مناسب.

قالت مارية:

ــ لم يحن موعد حضور النبى بعد.

تساءلت سيرين فى ملاطفة:

ــ ولم الإعداد مبكراً هكذا..؟!

هربت مارية بناظريها، وقالت:

– حتى تعبق رائحة العود والمسك، المكان، فالنبى يحب الرائحة الزكية.

أمسكت سيرين، فاستمرت مارية، بصوتها الدافئ، اللين، الواشى بصدق المودة:

– وأنت.. كيف حالك..؟!

تنهدت سيرين، وزفرت فى أسى.

اختلج إنسانا عينى مارية الصافيتين، وغادرتها إشراقة طلعتها، وهتفت فى عاطفة صادقة:

– سيرين.. مابالك..؟!

أطرقت سيرين فى صمت، وقالت فى نفسها: لاأريد أن أحمل مارية همى، وأفسد عليها يومها، وهى تستعد لاستقبال النبى محمد.

ألحت مارية، لتبوح لها شقيقتها بما يشغل بالها. عادت سيرين تحدث نفسها: لوبقيت صامتة، وغادرتها، ستظل الهواجس تتلاعب بها. هى أختى. وأنا أعرفها، ولن ترتاح حتى تعرف ماكدرنى، وإذا ماجاءها النبى وهى على هذا الحال، فلن تكون نفسها صافية، خالصة، وهى تستقبله. ألا ماأتعسنى.. لماذا حضرت الساعة..؟!

قالت مارية:

– .. هل ستظلين صامتة، هكذا، مثل أبى الهول..؟!

قررت سيرين أن تبوح لها، مفضلة ذلك، على تركها نهباً للشك والحيرة.

قالت سيرين:

– أبدا.

هتفت مارية محذرة:

– سيرين..

ردت سيرين، متصنعة الهزيمة:

– دائماً.. تغلبيننى يامارية.

قالت مارية، فى رفق، وقد آنست من لهجتها، قرب إنفراج عقدة لسانها:

— فضفضى عن نفسك.. هل هو حسان..؟!ـ
خفضت سيرين بصرها، وقالت:
— نعم
سألت مارية:
— هل أغضبك..؟
ردت سيرين:
— لا
تساءلت مارية فى دهشة:
— إذن ماذا..؟!
قالت سيرين:
— لاأدرى ماذا أقول.. حسان يجلس الساعات الطوال يحملق فى لاشئ، وإذا ماحاولت الكلام معه، غضب، وادعى أنى قاطعته. قاطعته عن ماذا، لاأعلم..!
تفكرت مارية قليلا، ثم انفجرت ضاحكة، وقالت:
— أحوال الشعراء.
ردت سيرين فى دهشة:
— تعنين أن لهم نزوات.
ردت مارية:
— لا ليست نزوات.. يكون مشغولا فعلا.
ازدادت دهشة سيرين، وقالت:
— مشغولاً فى ماذا وهو جالس يحملق فى الهواء.
ضحكت مارية، وقالت:
— .. لكن عقله يعمل.. فى استلهام معنى.. فى البحث عن كلمة، فى نظم بيت لايطاوعه.. ألم تذكرى لى مرة، أنه كان يردد شطر بيت، أعياه العثور على شطره الثانى، وكان ساعتها عصبياً، لايطاق.
قالت سيرين:
— وجده يامارية.. وجده.

ابتسمت مارية، وقالت:

ـ أسمعينا إذن..

عدلت سيرين، من وضع حاشية تحت مقعدتها، وقالت:

لم تفقها شمس النهار بشئ * غير أن الشباب ليس يدوم

ضحكت مارية، وتمايلت فى جلستها، وقالت:

ـ إذن.. فهو مشغول عنك بك.

خفضت سيرين بصرها، خجلا، وهتفت فى خفوت:

ـ مارية..

ربتت مارية على كتفيها، وقد عاودتها إشراقة طلعتها، وازداد جمال وجهها، وقد رسمت على جانبى فمها، ابتسامة خفيفة، وقالت:

ـ هيا إلى بيتك.. وكُفى عن الدلال.

نظرت سيرين إلى مارية بامتنان، وقالت كأنها تحدث نفسها:

ـ حقاً.. الحمل عندما يحمله اثنان.. يخف وزنه.

أفلتت من مارية الكلمات، دون أن تعى:

ـ ومن يشاركنى حملى..؟!

التفتت سيرين نحوها، وتساءلت:

ـ حمل؟!

ابتعلت مارية ريقها، بصعوبة، وتساءلت مستنكرة:

ـ من الذى قال «حمل»..؟!

وهربت بناظريها، خارج النافذة.. طالعتها رؤوس النخيل، تتلاعب الرياح بسعفها ذات الأوراق الإبرية، تلوح من بينها حيناً وتختفى حيناً، سباطة مبرعمة ببلح أخضر دقيق الحجم. تأملتها سيرين، وهتفت:

ـ مارية.. ماذا تخفين عنى..؟!

التفتت مارية، بغتة، فسقطت إحدى ضفيرتين، تلفهما حول رأسها، فتشع جاذبية آسرة، وكان تدلى الضفيرة، وتأرجحها، قد جعلها باعثة على الضحك.

قالت مارية، وقد لحظت إنفراج شفتى سيرين، وخمنت علام تضحك، فتناولت ضفيرتها تعيدها إلى مكانها، وقالت:

ـ ماذا أقول.. لست متأكدة بعد..

وقفت سيرين، وقد خيل إليها أنها أدركت سرها، اقتربت منها وربتت على كتفيها فى حنان.

فاستمرت مارية:

ـ نفسى تغم علىَّ أحياناً.. وأحياناً اشتاق لثمرة من الجميز.. أو توتة.. أو قطعة قشدة من لبننا الفلاحى.

هتفت سيرين:

ـ هو الحمل إذن..

ورفعت يدها إلى فمها لكن مارية منعتها، قالت سيرين:

ـ دعينى أزغرد مثل بنات مصر..

هددتها مارية بسبابتها، فقالت سيرين:

ـ إذن دعينى.. أبشر النبى..

قالت مارية محذرة، سيرين وهى تغادرها:

ـ انتظرى حتى أتأكد.

-٨-

طلبت مارية، من بريرة، أن تستدعى سيرين.

لم تكد بريرة تنصرف، حتى فوجئت مارية، بها، تدخل وبصحبتها سيرين.

وازاء الدهشة، التى علت وجه مارية، قالت بريرة:

ـ قابلتها فور خروجى.

تساءلت مارية، ضاحكة:

ـ هل ثمة شطر بيت مستعصٍ؟!

قالت سيرين فى نفسها: ليت حسان، ينصرف لقرض الشعر حتى لو انشغل عنى، ولكنه منصرف عن كل شئ، عايره أحدهم، بالجبن،

ملمحاً لعدم قتله مشركاً بحصنه يوم أُحُد، حين طلبت منه صفية عمة النبى ذلك. حاولت جهدى التخفيف عنه، وذكرته أن الجميع يعلمون أن علة أصابته، تجعله يحجم عن القتال، إلا أن الضيق الذى انتابه أصم أذنيه.

كتمت سرين مابنفسها، عن شقيقتها. فما دامت مارية، قد أرسلت فى طلبها، فهى فى حاجة لمن تستمع لها.

رفعت سيرين رأسها، وقالت:

— أبداً.. اشتقت إليك..

لم تنطلى كلمات سيرين على مارية، فعزمت أن توقع بها. طلبت منها أن تسمعها ماقرضه حسان من شعر، فإذا كان ذهنها مشغولا، أو كانت نفسها مكدرة، فسوف يتعذر عليها. ويبدو أن سيرين فطنت إلى حيلة مارية، فاستجمعت قواها الذهنية بسرعة، وأنشدت:

منع النوم بالعشاء الهموم ... وخيال إذ تغور النجوم

من حبيب أصاب قلبك منه ... سقم فهو داخل مكتوم

قالت مارية فى نفسها: والله ماأصابنى منه سقم، ولكننى فى حيرة من أمرى. هل أترك النبى، يطيل الجلوس عندنا، كما يشاء وكما أهوى أم أتركه يذهب إلى زوجاته. تطن فى الأذنين عبارة المقوقس يوم الرحيل: اسلكى كمصرية.

فأترك النبى يذهب، معللة لنفسى عدم تشبثى به، مراعاة لحقوق زوجاته، وخوفاً أن يناله كدر، من غيرتهن.

انتزعتها سيرين، من شرودها، وسألت:

— لماذا أرسلت فى استدعائى..؟

تأملت مارية أختها. أدركت أنها لن تبوح بما يشغلها، مهما حاولت معها، اتضح من نظرة عينيها أنها فضلتها على نفسها. أرجأت مارية معرفة مايشغلها، إلى فرصة أخرى وقالت:

— تذكرين الأعراض التى حدثتك عنها من قئ وخلافه.. خشيت أن يكون بعدى عن مصر، واشتياقى للصحبة، جعلنى أحلم بالولد.. وأن تكون رغبتى فى الخلف هى السبب.

ولكنى لحظت شيئاً جديداً.

وأشارت مارية إلى بطنها.

ورغم أن النظرة العابرة لاتلحظ شيئاً، إلا أن سيرين، بعينيها المدققتين، لحظت جديداً. قامت، وتحسست بطن مارية. اعتدلت فجأة، واحتضنتها. قالت:

– أبشرى.

سألت مارية.

– متأكدة أنت..؟

ردت سيرين:

– وهل تخطىء سيرين فى مثل هذا..؟!

صاحت مارية:

– أين الشراب يابريرة..؟

سرعان ماحضرت بريرة، وقالت معابثة:

– شراب ماذا..؟!

قالت مارية:

– سمعتينا ياماكرة، أم كنت تعلمين، وتكتمين.

ردت بريرة:

– وهل يخفى حالك على بريرة..؟!

ابتسمت سيرين، وهتفت:

– أين الشراب ياعابثة..؟!

هزت بريرة كتفيها معاندة، وقالت:

– ليس.. قبل أن أبشر رسول الله.

صاحت مارية.

– بريرة..!

ردت بريرة:

– أتودين حرمانى من هداياه..؟

قالت مارية:

ـ سأعوضك عنها.. لكن لاتحرمينى، رؤية الفرحة فى عينيه، حين أسر إليه بالبشارة.

- ٩ -

أطلت بريرة، برأسها داخل حجرة مارية. اعترتها الدهشة، وقالت:

ـ إفطارك كما هو..!

تطلعت مارية نحوها، بعينين ذابلتين، وقالت:

ـ نفسى مصدودة.

قالت بريرة:

ـ وحم.

قالت مارية:

ـ لاتذكرينى يابريرة.

وأشاحت بيدها. غادرتها بريرة، احتراماً لرغبتها فى العزلة. مالت مارية على جنبها، إلتماساً للراحة. لم تسترح. نهضت. أطلت من النافذة. طالعتها رمال الصحراء، على البعد، صفراء، هشة، تحت أشعة شمس الصباح الهادئة، واستشعرت حفيف رياح هينة، بسعف النخيل. تذكرت أشجار اللبخ. على شاطئ النيل، أمام قريتها صفن فى مصر. هفت نفسها لثمرة اللبخ، التى تشبه فى شكلها وطعمها ثمرة البلح. زفرت وقالت فى نفسها: أين لى منها ثمرة.. ثمرة لبخ واحدة.

عادت بريرة، لتطمئن على مارية. وحين وجدتها غير مستلقية، تشجعت ودخلت. قالت بريرة:

ـ بالله عليك يامارية.. تناولى شيئاً.

وأشارت إلى وعاء، موضوع أمامها، به بلح منقوع فى اللبن.

صمتت مارية، ولم تلتفت لها. استمرت بريرة:

ـ إن لم يكن من أجلك.. فمن أجل الوليد المنتظر..

دمعت عينا مارية، وخنقتها العبرات.

تساءلت بريرة:

ـ أمازال حديث قيسر، ينغص عليك عيشك..؟!

قالت مارية، خلال دموعها:

ـ وهل ماسمعته قليلا..؟

قالت بريرة:

ـ عندك حق.. ولكن.. لاتلتفتى إلى مثل هذه الشائعات.

قالت مارية:

ـ كيف لاألتفت إليها، وأنا أرى الحزن والألم يرتسمان على وجه النبى..

قالت بريرة:

ـ ماكان لها حق قيسر، أن تعيد عليك ماسمعته.

قالت مارية.

ـ وماذنب قيسر..؟!.. لقد نقلت إلىَّ ماتردد فى مجلس أبى جهم العدوى.

وعادت دموعها ثانية، حين تذكرت كلمات قيسر، عن الشائعات التى ترددت فى المدينة، متهمة مارية، أن قبطياً جاء معها من مصر، وأنه يأوى إليها، ويأتيها بالماء والحطب، فما الذى يحول دون أن تحمل منه..؟!

رفعت مارية رأسها، وقالت وهى تغالب دموعها:

ـ ألم يجدوا سوى «مأبور».. فيتقولون عليه..؟! إنه بمثابة ابن عم.. وفى منزلة أخ لى.

هدأتها بريرة. ربتت على كتفيها. ومسحت لها دموعها بظهر كفها، وقالت:

ـ متسبب فى إطلاق هذه الشائعات، أن زوجاته كثيرٌ، ولم تنجب إحداهن له.. مع أن فيهن عائشة البكر.. وفيهن الناضجة مثل زينب بنت جحش وجويرية بنت الحارث.. وفيهن ذات العيال مثل أم سلمى.

قالت مارية، وقد تمالكت نفسها:

— لاأحد يدرى السبب.

قالت بريرة:

— ستمر الأيام.. وسوف تقولين.. بريرة قالتها كلمة.

قالت مارية:

هل التقول من أهل المدينة؟

ردت بريرة:

— كيف.. وكانوا جميعاً فرحين، حين علموا بنبأ الحمل.

قالت مارية:

— لعل أحد خصوم النبى قد أطلق فرية، أن النبى وقد تعدى الستين، لايمكنه الإنجاب.

قالت بريرة:

— غداً تظهر الحقيقة، وتخرس الألسنة.

قالت مارية:

— مايَحُزّ فى نفسى، أنهم أطفأوا فرحة النبى. لن تتصورى مدى سعادته، حين بشرته بالحمل، ولن تتصورى مدى تبسطه معى.

قالت بريرة:

— ومن لايسعد، وقد مات أغلب أولاده من زوجته الأولى خديجة.

قالت مارية:

— ليتك رأيتِ إشراقة وجهه..

قالت بريرة:

— سوف تظهر الحقيقة وسوف تعود البسمة.

- ١٠ -

أطلت مارية من باب حجرتها. رأت دُلْدل فى مكانها من الحوش. اغتمت. وأحست بضيق من البغلة الشاهقة البياض، التى جاءت معها من مصر، وأسماها النبى دلدل. حدثت نفسها.

لاشك أن النبى غاضب منى. لم يستخدم البغلة، لأنه لم يعد يطيق

شيئاً من جهتي. ثم هونت الأمر على نفسها: لعل الحاجة لاتستدعى استخدام البغلة هذا الصباح.

وأخذت مارية تتساءل:

هل نجحت الشائعات فى إثارة غضب النبى. أم هى زوجته عائشة، قد أعمتها الغيرة، ونفخت فى النار. لا.. لايمكن أن تكون عائشة. سبق اتهامها، ودار بشأنها حديث الإفك. عندما كانت مع النبى فى إحدى غزواته، وتوقف الركب للراحة، وذهبت عائشة لتقضى حاجة لها. تحرك الركب، وحملوا هودجها، المسدل الستائر، ظناً منهم أنها بداخله، فهى لخفتها، لم يلحظ عدم وجودها أحد، وتصادف أن مر بها، قريبها صفوان، وهى مكشوفة عليه منذ الصغر، أوصلها للركب. وحين رآهما الناس معاً، تقولوا عليها، واتهموها به. غضبت عائشة، وذهبت عند والديها، ولم تعد للرسول إلا بعد أن برأتها آيات من القرآن.

من جرب الاتهام مرة، يصعب عليه أن يتهم غيره، أم أنها نسيت مع الأيام، ولم تعد تذكر، سوى أنها إمرأة. وأنى ضرةٌ لها. لقد برأت عائشة آيات من القرآن، هل أطمع أنا - الغريبة - فى آيات تبرئنى..؟!

دخلت بريرة، مربدة الوجه، وقالت:

- سمعتهم فى السوق، يتحدثون عن غضب النبى، وأنه كلف على بن أبى طالب للقصاص من مأبور.

اضطربت مارية، وامتقع لونها، وعجزت عن الكلام.

قالت بريرة، مخففة عنها:

- هونى عنك.. سوف تظهر الحقيقة.

تمالكت مارية نفسها، وقالت بصعوبة:

- متى..؟! .. بعد أن يكون سيف على، قد قطع رقبة مأبور.

قالت بريرة:

- وماذا نفعل الآن..؟!

قالت مارية بحده:

- نادى مأبور.

ردت بريرة:

- حين رآني راجعة من السوق، دون أن أحضر تمراً، صعد هو إلى نخلة قريبة.

قالت مارية، في ذعر:

- سيلحق به على بن ابى طالب.

سألت بريرة:

- وماذا نفعل إذن..؟!

انفجرت مارية، منفسة عن غضبها:

- أليس على لسانك.. سوى ماذا نفعل.. افعلى أى شئ.

صمتت بريرة، وقد أعياها الجواب. تفكرت مارية قليلا، وقالت:

- لن أستطيع الذهاب إلى مجلس النبى الساعة، فهو غاضب منى.

حركت بريرة لسانها، فى تردد. شجعتها مارية:

- ها

أتاها صوتها فى خفوت:

- حاطب.

صاحت مارية:

- لماذا أنت ساكتة من الصبح.. نعم حاطب بن أبى بلتعة، لقد خَبَرنى أثناء الطريق من مصر.. ولن يتأخر عن النجدة. أسرعى إليه، وقولى له أن بغلتنا تود الإئتناس ببغلته وسوف يحضر على الفور.

نهضت بريرة، وتهيأت للذهاب. هتفت بها مارية:

- لا.. لاداعى لأن يحضر هنا. إذهبى به بسرعة إلى مجلس النبى ليحدثه بشأن الظلم الذى سيقع على مأبور، وأخبريه فى الطريق، أن «على» ذهب للقضاء على مأبور ظلت مارية تقطع الحجرة فى خطوات قلقة. وتساءلت: لماذا ياربى، تضعنى الظروف فى موقف كهذا. وصل إلى سمعها صوت الريح تحف بشدة، فى سعف النخيل، فقالت فى نفسها: لوكنت أستطيع أن أصنع من جذوع النخل مركباً، أعبر به الصحراء وأضعك فيه يامأبور. ثم سَخِرت من نفسها: ثم

تغرقينه فى البحر، عندما يصل مركبك إليه، وتنفرط ألواحه. آه ياماريه.. أنت فى حاجة إلى مركب من جذوع شجر اللبخ. ماأن تمس ألواحه ماء النيل، حتى تتماسك.

أحست بجفاف فى حلقها، تود لو تشرب، ولكنها أيقنت الساعة، أن ماء الآبار جميعاً، لن يرويها، فقط تريد قطرة واحدة من ماء النيل.

سمعت طرقات على الباب. أسرعت تفتح فى لهفة. لم تجد أحداً. حدثت نفسها: حتى الريح تسخر منى..؟! .. وإلام أظل فى هذا العذاب..

وتذكرت ماسمعته عن القديسة دميانة. تلك التى رفضت أن تقدس التماثيل الرومانية، ولم ينهل منها ضرب السياط، أو رش الملح والجير الحى، على جراحها..

تمتمت مارية، من يتذكر عذاب غيره، يهون عليه عذابه. وهل يقاس ماأنا فيه من عذاب، بما قاسته الست دميانة.

طُرق الباب. لم تلتفت مارية، ظانة أن الريح تعبث بها. وإذا بصوت بريرة يأتيها:

– افتحى يامارية.

دخلت بريرة بوجه حزين. قالت مارية جزعة:

– قضى الأمر..؟!

لم تستطع بريرة الكلام. كانت أنفاسها تتردد بسرعة، من إسراعها فى المسير.

هزتها مارية، وهى تقول:

– أجيبى.. قضى الأمر..؟!

ردت بريرة فى صوت واهن:

– ليس كما تتوهمين. وجدت «حاطب» آخر، غير الذى تعرفينه.

سألت مارية:

– هل أنكرك..؟!

ردت بريرة:

– أنا الذى أنكرته..!
قالت مارية نافدة الصبر:
– لاتطيلى حيرتى وأفصحى.
قالت بريرة:
– وجدت رجلا كبر عشرين عاما. انحنى صدره أكثر، حتى كاد يلامس ركبتيه. وحين حاولت الحديث معه، لم يعرنى التفاتا. عند انصرافى، لحق بى غلامه، وأخبرنى أن النبى والصحابة غاضبون عليه، وأن «حاطب» لايدرى، ماذا سيكون مصيره، فقد أمسكوا بامرأة تدعى سارة، معها كتاب منه، يحذر أهل مكة من هجوم وشيك، من قبل المسلمين.
جلست مارية فى تخاذل، لاتدرى ماذا تفعل..؟!

قالت بريرة:
– لاتستسلمى للحزن يامارية.. سوف تظهر الحقيقة.
ردت مارية غاضبة:
– المهم ألا تظهر بعد فوات الآوان..
قالت بريرة:
– وماالعمل الآن..؟!
قالت مارية:
– أليس على لسانك.. سوى.. ماالعمل الآن..؟!
قالت بريرة:
– صحيح.. ماالعمل الآن..؟!
ضحكت مارية، غصباً عنها، وقالت:
– اذهبى إلى سيرين.. ترجو «حسان».. ليكلم النبى بشأن مأبور.
ثم استدركت:
– لا.. لاداعى لازعاجها وهى حامل.
ولم تكد تتم جملتها، حتى دق الباب، وإذا بسيرين أمامهما، وهى تلهث.

عاتبتها مارية:

ــ ماكان يجب أن تسرعى فى المسير، وأنت فى شهور حملك الأخيرة.

ردت سيرين، من بين أنفاسها المتلاحقة:

ــ حين سمعت بالخبر، لم أملك نفسى.

ترددت مارية قليلا، وقالت:

ــ كنت أريدك أن تكلمى «حسان».

قاطعتها سيرين:

ــ وهل أنا فى انتظار أن يقول لى أحد ماأفعله.. ماأن سمعت بالخبر، حتى طلبت من حسان أن يذهب من فوره إلى مجلس النبى.

سألت مارية وبريرة معا:

ــ وماذا حدث..؟

ردت سيرين:

ــ ذهب إلى المجلس ووجد النبى غاضبا. رجوته أن يذهب ثانية، ليتحين فرصة للحديث معه، أو يلتمس وسيلة للقاء على بن أبى طالب. أفهمنى حسان أن لقاء على لالزوم له، لأنه لن يعصى أمرا للنبى.

وبينما يتبادلن نظرات حيرى، إذا بالباب يُدق، ومأبور أمام أعينهن. أذهلتهن المفاجأة. وحين بدأن يدركن الموقف، رأين لون مأبور مخطوفا، وخيل إليهن أن نحافته زادت. تطلعت عيونهن نحوه، تود أن تستفسره عما حدث، ولكن حين لحظن شدة إعيائه، إلتزمن الصمت. طلبت مارية من بريرة، أن تحضر ثوبا لمأبور يتدثر به، وهو الواقف أمامهن، عورته مستورة - بالكاد - برداء أبيض حول وسطه.

أحسوا حركة بالحوش. أطلت مارية برأسها. وجدت «رباح» يسرج البغلة دُلْدل.

أحست بالاطمئنان، وصاحت:

ــ رباح.. بالله عليك.. هلا أتيتت لحظة.

دخل رباح. وحين رأى «مأبور»، مازال مضطربا، وبريرة تدثره، أدرك أن مارية تود أن تعلم منه ماحدث. قال رباح:

— لحسن حظك يامأبور أنك كنت فوق النخلة.

تطلعن إلى رباح بعيونهن، فاستمر قائلا:

— حين رأى مأبور على بن أبى طالب، وقد جرد سيفه، أسفل النخلة، اضطرب، وسقط عنه مايستر عورته. عندئذ وضع عليٌ سيفه فى قرابه وانصرف.

فهمت مارية ماقصده رباح. ولحظت أن بريرة متحفزة للسؤال، فقالت تقطع عليها الطريق:

— خذى «مأبور»، وقدمى له تمرا باللبن، ليسترد عافيته، واياك أن تفتحى فمك بكلمة.

انصرف رباح، وخرجت بريرة بصحبة مأبور. لحظت سيرين أن مارية، يعلو وجهها الوجوم، فقالت:

— براءتك قد ظهرت، فعلام الوجوم..؟

تنهدت مارية، وشاب صوتها أسى:

— حقا ظهرت براءتى.. ولكن سر مأبور أُنتهك.

هزت سيرين رأسها وقالت بأسف:

— جُرح شعوره.

واستمرت، تخفف عن مارية:

— جرحه سيندمل مع الأيام..

أمسكت سيرين، حين دخلت بريرة وقالت لمارية:

— أذهب إلى عائشة وباقى زوجات النبى لأزف اليهن براءتك.

تساءلت مارية:

— تزفين البراءة.. أم ترين أثرها على وجوههن ياماكرة..؟! بدلا من ذلك فكرى فى حاطب.. أم نتذكره وقت أزمتنا، وننساه وقت انفراجها. اذهبى للاطمئنان عليه.

قالت سيرين:

— علمت من حسان، أن النبى، لم يأخذ برأى عمر الذى أراد قتله، وقدَّر لحاطب اشتراكه فى غزوة بدر، وعفا عنه.

تمتمت مارية:

— نبى كريم.

ثم توجهت بالحديث، نحو بريرة:

— اذهبى إلى حاطب، وطمئنيه علينا، واسأليه، إذا كان فى حاجة إلى شيء، قضيناه له.

خرجت بريرة، واستأذنت سيرين فى الانصراف.

خلت مارية إلى نفسها. مالت بجنبها على حاشية لينة، واستندت بمرفقها عليها، وَمَدَّت خدها فوق راحة يدها، وسرح فكرها: ألا ماأحكمك أيها المقوقس، حين أرسلت مأبور الخصى معى. أتراك كنت تتحسب لما قد يثار، وفى خدمتى رجل.

على أية حال.. الحمد لله.. فقد ظهرت براءتى.. ماذا كان يظن مطلقو الشائعات..؟!

لاشك أن نجاتى سوف توغر صدورهم.. وسوف تؤجج الغيرة فى نفوس بعض زوجات النبى خاصة عائشة..

ترى.. ماذا ينتظرنى منهن، فى قادم الأيام..؟!

-١٢-

طرقت بريرة باب حجرة مارية، ودخلت. وجدتها ساهمة، وبدا أنها لم تشعر بدخولها.

تنحنحت بريرة وقالت:

— لا.. ليس لك حق.. أكرمك النبى، وأسكنك هذه المشربية فى ضاحية «العالية»، بعيداً عن المدينة، حماية لك من ألسنة الغيرة.

التفتت مارية إلى بريرة، وقالت:

— بعدت عن سيرين فى وقت الحاجة إلىَّ، لأخف لها دوماً، وقد وضعت ابنها عبد الرحمن.. كما بعدت عن قيسر.. وكان إحساسى بقربها يذهب عنى الوحشة.

ردت بريرة:

- المسافة بين العالية والمدينة، لاتستغرق، فوق ظهر البغلة، أكثر من وقت تناولك الطعام.

صمتت مارية، فأعقبت بريرة:

- لا.. ليس هذا مايحزنك.

تنهدت مارية بصوت مسموع، وقالت:

- إليك عنى يأم لسان طويل.

ضحكت بريرة، لتسرى عنها، وقالت وهى تضع يدها على صدرها:

- هل تخفين سراً عن بريرة..؟!

قالت مارية:

- مايحيرنى حقاً غيرة عائشة الزائدة، مع أنها مفضلة عند الرسول.

ردت بريرة:

- لا.. ليس هذا مايحزنك.. ولاتحاولى خداع بريرة.

قالت مارية:

- ألا تستطيع الواحدة أن تفلت منك أبداً.

وتلاقت عيونهما. أدركت بريرة - فجأة - مايدور بخاطر مارية.

لقد سمعنا قصة هاجر المصرية. تلك التى تزوجت من النبى ابراهيم، ومازالت سيرتها عطرة حتى اليوم. يكفى أنهم يسمونها أم العرب، لأنها ولدت اسماعيل، جدهم الأكبر.

ويكفى أن لهفتها من أجل شربة ماء لوليدها اسماعيل، قد خلدتها الأيام. فسعيها بين جبلى الصفا والمروة، الصغيرين، بحثاً عما ينقذ وليدها من الموت عطشاً، أصبح شعيرة، يقوم بها الحجاج كل عام، وهم يسعون بين الصفا والمروة، كما يفعل ذلك المعتمرون، طوال العام، مستعيدين ذكراها، متمثلين انسانيتها.

سألت بريرة نفسها: تُرى.. هل تخشى مارية، أن تشوب سيرتها فيما بعد شائبة، وأن يتقول الناس عليها.

تلاقت نظرات المرأتين، ثانية، فأحست كل منهما، أن الأخرى قد أدركت مايجول بخاطرها.

قطعت بريرة الصمت قائلة:

– لاتفكرى فى شئ الآن، وحسبك رعاية النبى لك، بعد ماحدث، وزياراته الكثيرة ليطمئن عليك، وأنت على وشك الوضع.

تساءلت مارية:

– كيف أمنع الفكر..؟!

حذرتها بريرة:

– تفكيرك وإحساسك بالأسى قد يؤثر على مافى بطنك.

قالت مارية:

– ياخوفى مما فى بطنى.. إذا كان الحمل قد أثار الغيرة.. فمابالك حين أضع..!

قالت بريرة:

هونى على نفسك..

وإذ إطمأنت بريرة، أن مارية قد هدأت، استأذنت، لترعى شئون الدار. وهى تغادر عتبة الحجرة، سمعت صرخة قاطعة. استدارت فوجدت مارية تمسك بطنها.

سألت بريرة:

– حان الوقت..؟

ردت مارية فى ضعف:

– لست متيقنة بعد.

وسرعان ماتغضن وجهها من الألم. أرقدتها بريرة فوق حاشية. وأسندت رأسها إلى وسادة صغيرة، وضعتها لصق الحائط. وأسرعت فى استدعاء القابلة سلمى زوج ابى رافع.

قامت مارية نصف قومة، ومالت بجذعها على حاشية لصق الحائط، وقد استردت بعضاً من عافيتها، ترنو بين حين وآخر إلى وليدها.

أحاطت بها، سيرين، وبريرة، وقيسر، وأم سلمى من زوجات النبى، والقابلة سلمى، يهنئنها بسلامتها، وسلامة وليدها.

قالت أم سلمى:

– أبشرى يامارية.. أعتقك النبى.

اعتدلت مارية بجذعها، فأمالتها سيرين برفق، كما كانت، وهى تقول ضاحكة:

– هونى عليك..

واستمرت أم سلمى:

– أصبحت فى مصاف باقى الزوجات ياأم ابراهيم.

تألقت عينا مارية بالفرحة ومالت على وليدها تقبله، وتحبك الغطاء حوله.

قلن جميعاً فى نفس واحد:

– مبارك عليك.

طرق الباب. فتحت بريرة بحرص. أدخلت امرأة من نساء الأنصار، جاءت تعرض رغبتها فى إرضاع الصغير. شكرتها مارية بصوت واهن، وطلبت منها الجلوس، لترتاح بعض الوقت.

ولم تكد تفعل، حتى توافدت نسوة كثيرات من الأنصار يعرضن نفس الرغبة.

قالت أم سلمى بعد أن شكرتهن:

– اختار النبى أم سيف لتكون مرضعاً لإبراهيم. وتصدق على فقراء المدينة. وأمر بتخصيص سبعاً من الأمعز، لتدر لبناً، إذا شح ثديا المرضع.

اغرورقت عينا مارية بالدموع، تأثراً.

استأذنت النسوة فى الانصراف، ليتحن لمارية وقتاً للراحة. ودعتهن بريرة، وعادت لتلقى نظرة على مارية. ولتسألها إذا كانت لها حاجة قضتها. وجدتها مغتمة مفتوحة العينين، ساهمة، سألت بريرة:

ـ لماذا لم تغمضى عينيك..؟!

تطلعت إليها مارية ولم تجب. قالت بريرة:

ـ لست أدرى، ماذا تريدين.. هاأنت قد أصبحت أم ولد النبى.

ردت مارية:

ـ صدقينى.. أنا ممتنة لما حدث لى.. ولكنى خائفة.

تساءلت بريرة:

ـ الخوف.. والنبى وأصحابه لاتسعهم الفرحة.

قالت مارية:

ـ ليت الأمر يمر بسلام.. أنا الآن أم ولد النبى، وفى مصاف زوجاته، أتراهن يكتمن غيرتهن..؟!

قالت بريرة:

ـ اطرحى الخوف عنك.. ولاتهتمى، سوى بصحتك، وصحة وليدك.

أغمضت مارية عينيها، وتمتمت:

ـ ليتك تكونين على صواب..!!

-١٤-

أبلغ مأبور مارية، أن رباح جاء فى طلب ابراهيم. استمهلته ريثما تعده، ليذهب به إلى أبيه. وكان يحلو للنبى أن يحمله بين ذراعيه، يناغيه ويلاعبه، ويذهب به، عند بنته فاطمة، وعند حفيديه الحسن والحسين، يسألهم عن أوجه الشبه بينهما، فيخبرونه بما يرونه. كما كان النبى يطوف بابراهيم على باقى زوجاته، مداعباً الصغير، ويسألهن عن الأوصاف المشتركة بينهما، فيخبرونه بما يلحظنه، فتطيب نفسه. وكانت مارية عندما تصلها هذه الأنباء، تسر أيما سرور، وتحمد الله أن ابراهيم جاء شبيهاً بأبيه، وأن الجميع قد لحظوا ذلك، ففى هذا تأكيد لبراءتها

وعفتها، ومدعاة لإدخال السرور على نفس أبيه.

وعندما كان يصلها إنكار عائشة لأوجه الشبه بين ابراهيم وأبيه، لم تكن تعير الأمر التفاتاً. فهى تعرف أن هذا مرده إلى غيرتها الشديدة، أو إلى غضبها من النبى لسبب أو لآخر. عند الضحى، عاد رباح بالطفل، وأخبر مارية، أن النبى أرسل فى طلبها، وأنه فى انتظارها بمنزل حفصة، التى ذهبت لزيارة أبيها. تهيأت مارية للخروج، وأمرت مأبور أن يعد لها بغلة لتركبها.

ذهبت مارية للقاء النبى. وحين عادت حفصة، وجدت الستر مسدلا، استشعرت مارية حرجاً بالغاً، واستأذنت فى الانصراف.

ظلت مارية، طوال طريق العودة، تؤنب نفسها: ماكان ينبغى أن أسمح بإسدال الستر، والاختلاء بالنبى... وهل كنت أخالف رغبة له..؟!.. ماكان ينبغى أن أذهب إلى دار حفصة، وأضع نفسى موضع الحرج. وهل كنت أستطيع أن أعصى أمراً لرسول الله..؟! .. يالى من شقية.. كان يجب أن أتعلل بمرض ولاأسمح له بالإختلاء بى.. بل كان يجب أن أتعلل بالإنشغال بابراهيم أو بأمور البيت ولاأحضر إلى دار حفصة. وماأدرانى أن هذا سيحدث.. ترى. ماذا ستفعل حفصة الآن.. وهى حادة الطبع مثل أبيها عمر بن الخطاب.. لوكنت مكانها لربما استشعرت إهانة، أن يتم ذلك على فراشى.. لاشك أن حفصة ستخبر صديقتها عائشة، وهذه ستؤلب على النبى باقى زوجاته - تُرى كيف سيواجه النبى حملتهن عليه.. وهل سيترفق بهن كعادته.. وماذا لو تجاوزن الحد..؟!

أنا الملومة.. أنا الملومة. أترانى دفعته إلى هذا دون أن أدرى..؟!.. أم تراها الرغبة انبثقت فى نفسينا فى وقت واحد.. آه.. من يريحنى من عذابى..؟!..

لماذا سمحت بهذا..؟! من يستطيع أن يدلنى بما كان يجب على أن أفعله.. يالى من شقية.

كادت مارية، تدمى عينيها، من كثرة البكاء. فقد حدث ماتوقعته، تظاهرت زوجات النبى عليه، واعتزلهن النبى فى مشربة خاصة له. وبين لحظة وأخرى تردد مارية، أن الدنب ذنبها، وبريرة تخفف عنها بقولها، وهل كنت تستطيعين رفض رغبة لزوجك.

وسرعان ماحضرت سيرين، التى أرسلت بريرة فى طلبها، لتعاونها فى التخفيف عن مارية.

وما أن رأت مارية سيرين، حتى أجهشت فى البكاء. ربتت سيرين على كتفيها وهى تردد:

ــ كفى.. ستقتلين نفسك.

وأعقبتها بريرة:

ــ الأيام كَفيلة بمداوة ماحدث.

فهمت مارية ماألمحت إليه سيرين، فقالت من بين دموعها:

ــ لست حزينة لأنه حرّمنى علىّ نفسه.. ولكنى حزينة لتظاهر زوجاته عليه، مستمرئات عطفه، وترفقه بهن.. حتى اعتزلهن مايقرب من الشهر.. لاأحد يحنو عليه، أو يخدمه سوى غلامه رباح.. كل هذا بسببى..

قالت سيرين:

ــ ليس بسببك صدقينى.. ولكنها الغيرة..

وربتت سيرين كتفى شقيقتها ثانية، لتمنعها من البكاء، وهى تحدث نفسها: لقد فعل النبى مابوسعه إتقاءً لغيرتهن. حاول استرضاء حفصة، بتحريم مارية على نفسه، شريطة ألا تخبر أحداً بماحدث. ولكن حفصة أخبرت صديقتها عائشة وهذه أذاعت سره بين باقى الزوجات. ولاشك أنه يحّز فى نفس مارية، أن تحريمها لم يجد نفعاً.

عادت مارية تردد:

ــ كل هذا بسببى.

تصنعت سيرين الغضب، وقالت:

- ليس لك شأن.. هى غيرتهن الزائدة.

ردت مارية، وقد تماسكت قليلا:

- مايحّز فى نفسى أكثر، إنضمام أم سلمى إلى عائشة.. أم سلمى السيدة الكبيرة العاقلة والتى بينها وبين عائشة ود مفقود.

إستأذن مأبور، ودخل. وقف صامتاً، والتفت بوجهه ناحية أخرى، حتى تكف مارية عن البكاء، وتتمالك نفسها. سألت سيرين:

- ماوراءك يامأبور..؟

رد مأبور:

- أبشرن جميعاً.. ذهب عمر بن الخطاب إلى النبى فى مشربته، ورجاه أن يعود من معتكفه.. وأبلغنى رباح أن النبى سيذهب إلى زوجاته، بعد أن عفا عنهن.

تهلل وجه مارية بالبشر، وتألقت عيونهن بالفرح، وإن أمسكن عن التعليق.

فقد دار بخلدهن أن مارية مازالت محرمة على النبى.

تناولت سيرين كف مارية، بين كفيها، وقالت:

- الصبر يامارية.

سحبت مارية يدها، وقالت:

- لاتنشغلى بأمري.. المهم أنه عاد إلى حياته الطبيعية.

-١٦-

لفت إنتباه مارية، حفيف الريح بالكروم، التى تحيط بمشربتها. لم تجد فى نفسها ميلا، لتطل على أشجار الكروم، لتروح عن نفسها، كما اعتادت أن تفعل عصر كل يوم.

أحست بنفسها عزوفاً، عن التسامق بروحها مع أشجار النخيل التى تحيط بالكروم، وقالت لنفسها: هاهى الريح قد جرت رخوة، طرية، بين النبى وزوجاته، وأنا وحيدة مع ولدى ابراهيم. وكان النبى عندما

يفرغ من مشاغله، يقول لمن يسأله، أنه فِي طريقه إلى مشربة أم ابراهيم. آه.. متى يقصدها ثانية..؟!

ولم تُلقِ مارية، بالاً، إلى بريرة، التى أطلت برأسها، مؤنبة، تقتيرها على نفسها فى الطعام، وعارضة إحضار بعضاً من العسل.

راحت مارية تحدث نفسها: كنت أُقتِر، فى استعمال عسل بنها، الذى أحضرته معى من مصر، حتى لاينفد. وكنت تحب العسل يارسول الله، فأوثرك على نفسى، ولاأتناول إلا القليل، أما الأن، فنفسى مصدودة عن تناول أى شئ. آه.. متى تتناول معى، يارسول الله، هذا العسل، طيب الرائحة والطعم. ليس مثل العسل الذى تناولته عند زوجتك زينب، وادعت زوجتك الأخرى سودة، أن نحله قد رعى فى شجر العرفط، الذى يثمر المغافير، هذا الثمر، حلو الطعم، كريه الرائحة، وأوهمتك أن رائحة فمك غير لطيفة.

آه.. لشد ماقسين عليك يارسول الله.

تلفتت مارية فى جنبات البيت. أحست به خاوياً. وكان النبى حين يحضر، لاتراه فارغاً قط. يخيط ثوباً لأرمله، يخصف نعلا لمسكين. يناغى ابراهيم. وحين لايكون النبى فى البيت، كان مجرد إنتظارها له، أو توقعها مجيئه، يجعل جنبات البيت تخلو من الوحشة، ويذهب عنها إحساسها بالوحدة.

صعبت على مارية نفسها وهى تلوك فى خاطرها: الزوجات اللائى تظاهرن عليه، وغالين فى غيرتهن، ينعمن بصحبته، وأنا التى لم تجن ذنباً محرمة عليه.

تذكرت مارية، حين ذهبت للقاء النبى فى بيت حفصة. كادت قدماها، تقودانها إلى حجرة عائشة، فحجرات زوجات النبى التسعة، حول المسجد، متشابهة.

وتساءلت: تُرى.. لو دخلت حجرة عائشة.. فماذا كان سينالنى منها..؟!

حمدت الله، أنها لم تدخل حجرة عائشة ولكنها لم تستطع أن

تغفر لها، إثارة زوجات النبى عليه.

واستمرت مارية، فى حديثها، إلى نفسها: لماذا ياحفصة لم تكتمى سر رسول الله.. ماذا كان يضيرك، لو حافظت على سر، ائتمنك الرسول عليه. هل يعجبك حالى الآن..؟!

وهل يعجب هذا والدك عمر. سوف أرسل له «مأبور». وماذا يجدى ذلك، والنبى أخذ عهداً على نفسه، أننى محرمة عليه. كيف يحله عمر من عهده.

سمعت صوت بكاء ابراهيم، فخفت إليه، فى لهفة، واحتضنته، أدركت أنه جائع. لامت نفسها لسهوها عنه. ولكنها تنبهت فجأة، إلى أن المرضع لم تحضر بعد.

سألت بريرة، فأبدت عجبها، لأن المرضع، لم يسبق لها أن تأخرت. طلبت منها مارية، أن تنتقى ماعزاً، وتنظفها، وتحلب لبنها لإبراهيم. وبعد قليل، فوجئت بالمرضع تطرق الباب، وتدخل. بادرتها مارية:

- لم تأخرتِ ياامرأة..؟!

ردت المرضع:

- جئتك بالبشارة.. ولى هدية.

قالت مارية، وقد عقدت مابين حاجبيها:

- تدارين، حتى لاألومك على التأخير.

قالت المرضع:

- لا والله.. ماأخرنى إلا رباح.

أسرعت دقات قلب مارية وتطلعت إليها، تتعجلها فى الإفضاء.
قالت المرضع:

- أخبرنى رباح أن النبى قادم إليك.

زاد وجيب قلب مارية، لكنها استدركت:

- لعله قادم.. من أجل ابراهيم.

أكدت المرضع:

— بل من أجلك أنت.

ردت مارية، غير مصدقة:

— ليرى.. ماإذا كنا فى حاجة إلى شئ.

قالت المرضع:

— عجباً لك يامارية.. قلت لك قادم من أجلك أنت.. لقد عاتبه ربه، لتحريمك على نفسه وتلت عليها:

﴿ياأيها النبى لم تحرم ماأحل الله لك، تبتغى مرضاة أزواجك، والله غفور رحيم. قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾

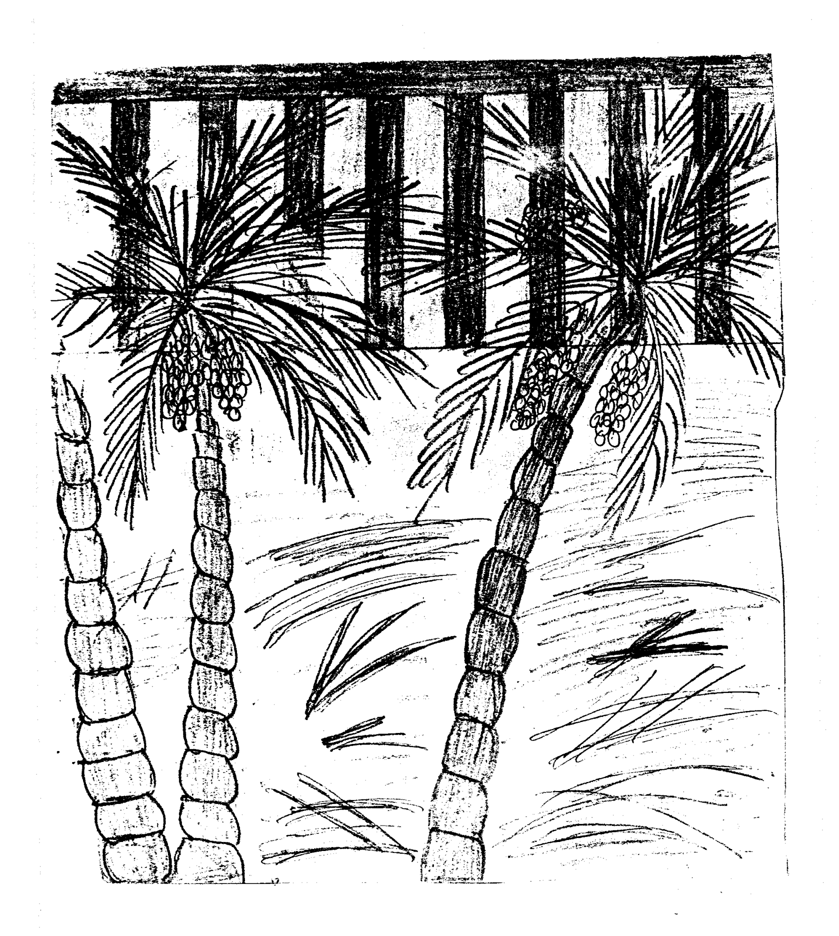
لم تصدق مارية. آيات من القرآن بشأنها، هى الغريبة. آيات بحقها مثل عائشة. آيات يرددها الناس فى خلواتهم، وصلواتهم، وفى المساجد.

إمتلأت نفسها بالكبرياء، وهى تردد: سوف يذكرنى الناس كما يذكرون هاجر المصرية.

انتزعتها المرضع من أفكارها، وهى تطلب منها أن تناولها ابراهيم.

أعطته لها وتطلعت إليها، ولم تتكلم.

أدركت المرضع أن مارية تود أن تهىء نفسها، لاستقبال زوجها. احتضنت ابراهيم، واستأذنت لترضعه فى ظل الكروم..





صدر للمؤلف

****

أدب الطلائع :

- حلوان شامة. قصة طويلة. أدب الجماهير. طبعة أولى. فبراير ١٩٨٢
- حلوان شامة (حكاية الأمير سيف والأميرة شامة). رؤيا بالاسكندرية ودار آزال ببيروت. طبعة ثانية. فبراير ١٩٩٠
- حلوان شامة. أدب الجماهير. طبعة ثالثة. اكتوبر ١٩٩١
- أمن الذئاب. قصة طويلة. رؤيا. نوفمبر ١٩٨٨
- تعظيم سلام. قصص. أدب الجماهير. يونيو ١٩٨٩
- الأسد ينظر فى المرآة. قصص. الحقيقة. فبراير ١٩٩٠
- شجرة الدر تتلقى الأمانة. رواية. أدب الجماهير. مايو ١٩٩٠
- بنات رشيد. مسرحية. هيئة الكتاب. نوفمبر ١٩٩٠
- تمرد رئيسة البنائين. قصص. أدب الجماهير. اغسطس ١٩٩١
- تمرد رئيسة البنائين. قصص. يافا للدراسات والأبحاث. طبعة ثانية. ١٩٩٢
- براءة مارية القبطية. قصة طويلة. أدب الجماهير. سبتمبر ١٩٩٢

رقم الايداع : ١٩٩٣ / ٨٣٦٤

الترقيم الدولى : I . S . B . N

977-00-5685-5